العلم والأدب والأساطير في كتب السلف *

لا يجهل أحد أن أجدادنا العرب قد خلفوا لنا تراثاً علمياً وأدبياً ضخماً، وأن أعظم ما ولدته قرائح السلف من الكنوز الثمينة قد طوته الأيام في طياتها، وغيبته في مجاهلها، ففقد واندثر ولم يبق منه سوى أسماء مصنفات يقرؤها المرء في تراجم المؤلفين. ولكن الجَلَد العاثر لم يقوَ على اتلاف جميع هذه المصنفات، بل لبث منها جملة صالحة مبثوثة في دور الكتب العامة والخاصة في الشرق والغرب، كدار الكتب المصرية في القاهرة، ودار الكتب الظاهرية في دمشق، ودور كتب ليدن وبرلين والاسكوريال ولندن وباريز واسطنبول وغيرها كثير.

ومن المعروف أن علماء العرب والاسلام كانوا إبان مدنيتهم الزاهرة حلقة مهمة من حلقات تاريخ العلوم البشرية. ولهذا اذا أنعمنا النظر في مخلفاتهم ألفيناها تتضمن خلاصة علوم الاجيال القديمة، أي زبدة ما ولدته قرائح الامم التي درجت قبل العرب في القرون الاولى، مع اضافات جليلة أضافها علماء العرب اليها في مختلف العلوم، ولاسيما فيما له صلة بالعلوم الاسلامية وعلوم اللغة وفنون الادب العربي.

ولا ينكر أحد فضل المستشرقين علينا فيما نشروه من تلك الكتب في القرن الماضي وفي القرن الحاضر، بعد ضبط موادها وتمحيصها وفهرستها، وضبط كثير من كلها بالشكل الكامل، وطبعها على ورق صقيل بأحرف

(*) محاضرة ألقاها الأمير مصطفى الشهابي في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ٧ نيسان ١٩٤٢.

جميلة، وابرازها للناس بحلل قشيبة. ولا ينكر أحد أيضاً فضل مطبعة بولاق الأميرية، ودار الكتب المصرية، ولجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر فيما نشرته وتنشره من الكتب القديمة والحديثة.

والذي حداني على الكتابة في هذا الموضوع وقوع نظري على بعض كتب قديمة نشرها الناشرون حديثاً دون أن يتساءلوا هل في نشرها فائدة أم لا؟ فالكتب القديمة ليست كلها مفيدة، بل يمكن القول بان بعضها مضرة لايجوز أن يقرأها الناس في أيامنا هذه. وليس في قولي هذا غرابة. وإقامة الدليل عليه من أبسط الأمور. وما علينا إلا أن نلقي نظرة على أنواع العلوم التي صنف بها أسلافنا العاملون فتتجلى لنا هذه الحقيقة في أجلى مظاهرها.

علوم السلف:

يمكن قسمة علوم السلف (من حيث بحثنا هذا) ستة أقسام وهي: علوم الدين، وعلوم اللغة، وآداب اللغة، وضروب الفلسفة، والعلوم المادية والعلوم الاجتماعية.

فالعلوم الدينية من فقه وحديث وعقائد وغيرها لانتعرض لذكرها، لأن لها في الأزهر وغير الأزهر علماء أعلاماً هم أدرى منا بحقائق ماصنفه أسلافهم فيها، وبما يفيد أو لايفيد نشره من تلك المصنفات. ولابد لكل شخص يلمّ إلماماً بالكتب المذكورة من أن يدهش للجهود الكبيرة المضنية التي جعلتهم يطلعون علينا بهذا التراث العظيم. لكن الكتب القديمة للعلوم الدينية خضم واسع الارجاء يضل فيه أمثالي ويتمنون أن يقرأوا بدلاً منها كتباً دينية حديثة مبسّطة حسنة الترتيب والتبويب خالية من الحشو والتطويل، يستفيد منها غير المعممين قبل المعممين. ولو صنف علماء اليوم كتباً كهذه، وجعلوا الكتب القديمة الاختصاصيين من علماء الدين دون غيرهم، لافادوا جمهور المتأدبين فوائد كبيرة.

أما كتب اللغة التي صنفها الاجداد فلا غنى لنا عنها ريثما نصنف ماهو أجود منها في هذا الزمان الذي اتسعت فيه المعارف البشرية حتى ضاقت معجماتنا منها كل الضيق . فالقاموس المحيط واللسان والصحاح والمخصص والتاج وأساس البلاغة وأمثالها كلها اليوم ضرورية . وقد خدم ناشروها لساننا العربي خدمة جلى . ولابد من الاحتفاظ بها وبنسخها المشذبة أي المعاجم الحديثة كمحيط المحيط وأقرب المواد والمنجد والبستان وأضرابها . ولكن جميع هذه المعاجم لا تصلح في الحقيقة لزماننا هذا لان فيهـــا من العيوب والنقائص مالا يعد ولا يحصى . وحسبك منها أن معظم ماورد فيها من الاسماء والمصطلحات لم تعرف تعريفاً علمياً (١) . ولست أدرى متى يصبح عندنا معجم عربي (كمعجم لاروس الصغير مثلاً) ضبطت فيه معاني الألفاظ ضبطاً علمياً ؟ ومتى يكون لنا معجم فرنجي عربي يشتمل على أجود الكلم العربية أو المعربة للمصطلحات العلمية والمخترعات الحديثة ؟ ولست أدري من هم عشرات العلماء الذين يستطيعون صنع هذين المعجمين على أن يعمل كل منهم في نطاق اختصاصه ؟ ومهما يكن من أمر فلابد لنا قبل تحقيق هذه البغية من الاستعانة بالمعاجم القديمة والحديثة ، ومن الترحيب بما يطبع من أبحاث اللغة كالافصاح الذي اختصرت فيه ألفـاظ المخصص ، وكرسائل الثعالبي التي كانت طبعت في مطبعة بيروت للآباء اليسوعيين ، وكأدب الكاتب لابن قتيبة الذي طبعه الكاتب الالمعي السيد محب الدين الخطيب ، وكرسالة الكرم التي نشرها الاستاذ اللغوي سليم الجندي في مجلة المجمع العلمي العربي الخ .

وأما آلات اللغة وأخص منها الصرف والنحو فكتبها القديمة هي النبع الذي يستقي منه كل أديب متمكن من لسانه . ولاسبيل الى نكران

(١) انظر مقالي في عيوب المعاجم العربية في عدد تشرين الأول « اكتوبر » سنة ١٩٤٩ من مجلة المجمع العلمي العربي بعنوان « اسماء النبات والحيوان في المعجمات العربية » .

الثمرات التي يجنيها المتأدبون من تلاوة كتاب سيبويه ومغني اللبيب وشرح الشافية وأمثالها . ولكن من ذا الذي ينكر أن قواعد لغتنا العربية تحتاج الى تبسيط ، وان الانكباب على كتب الصرف والنحو القديمة يعد من الامور المضنية ، وان طلاب الادب يرجحون تلاوة الكتب المدرسية الحديثة لسهولة فهمها . ومع هذا لابد لنا من الاحتفاظ بالكتب القديمة ليرجع اليها أساتذة اللغة وعلماؤها .

كتب الأدب القديمة

هي في نظري من أعظم مخلفات الاجداد شأناً ، ومن أشدها تأثيراً في كياننا القومي . فهي التي تعلمنا بيان لغتنا وتعابيرها ومصطلحاتها ، وهي التي تطلعنا على جانب من مدنية أجدادنا ، وعلى كثير من عاداتهم وأخلاقهم وسيرهم وحكمهم وأمثالهم ومعيشتهم ، سواء في ذلك المتبدون أم المتحضرون منهم . وأرى أنه لايمكن أن تقوم قائمة لشعب من الشعوب في عصر القوميات هذا ، اذا أهمل تراث لغته الادبي . ولهذا وجب أن نهتم بكتب أدبنا القديم ، لالما فيها من فوائد بيانية حسبُ ، بل لما حوته أيضاً من موضوعات قومية يستفيد منها كل عربي صميم ، دع الذين عروبتهم من قوارير .

ويتضح من ذلك أن العمل على نشر أمهات كتب الأدب يعد من الأمور الحيوية للغتنا ولقوميتنا جميعاً . ولاتقدر الفوائد التي نحصل عليها من مثل طبع الكامل والأمالي والبيان والتبيين والاغاني والعقد ونشوار المحاضرة ودواوين فحول الشعراء وتراجم كبار الادباء . ولايقل شأناً عن ذلك جمع أمثال العرب وحكمهم وقصصهم كما فعل مصنفا كتاب (قصص العرب) المطبوع في مصر حديثاً .

واذا دعوت الى ضرورة طبع كتب الادب القديمة ، والى ابرازها على المتأدبين بحلل قشيبة ، والى اقبال شبابنا المثقفين عليها ، فلست أنكر أن الادب العربي كائن حي يجب أن يتطور مع الزمن كسائر الاحياء ،

وانه يجب أن يكون لنا أدب جديد يتناول من شؤوننا الحاضرة ما تناوله الادب القديم من شؤون آبائنا الاولين . فانا اذن لا أقول بوجود أدب قديم وأدب جديد ، بل بوجود أدب عربي واحد حي نام يتطور مع الزمن باساليبه وصوره . وعلى شبابنا المثقفين أن يتزودوا بالسائغ من هذا الادب قديمه وحديثه . فمن القديم يتعلمون ملكة البيان في دقائق التعبيرات والمصطلحات ومن الجديد يتعلمون أساليب الغربيين أو قل أساليب المتأخرين في الانشاء الواضح والافكار المتسلسلة . وفي الادب القديم يعيشون بخيالهم في مجتمعات الاجداد ، ويتعلمون محبتهم . وفي الادب الحديث يجدون صور مواطنيهم وغير مواطنيهم من الاجيال الحاضرة ، وصور البيئات التي يعيشون فيها . ويتضح من ذلك أن في قديم الادب العربي وحديثه أموراً ينبغي لكل متأدب الاطلاع عليها على السواء . ومن خطل الرأي بل من التجني على لغتنا وعلى قوميتنا القول بان الادب العربي القديم لا يصلح لهذا الزمان ، وانه يجب أن نقطع صلتنا به . ومن خطل الرأي أيضاً بل من التجني على لغة الضاد الاكتفاء باساليب الادب القديم والاعراض عن أساليب عصرنا الحاضر . فاللغة العربية يجب أن تظل حية نامية . ولا يتيسر لها ذلك الا اذا صور أدباؤنا المحدثون بيئتنا الحاضرة باساليب الغربيين وبيان الادب القديم واشراقه .

العلوم المادية :

هي بيت القصيد في هذا المقال ، وقد حفزني الى كتابته اقدام بعض الجماعات على نشر مخطوطات عربية قديمة في علوم طبية وزراعية لا تصلح لزماننا هذا .

ومن المعلوم أن العرب القدماء قد اشتغلوا كثيراً بالعلوم الرياضية والطبية والزراعية كما اشتغلوا بالكيمياء والنبات والحيوان وغيرها . فالعلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة ومثلثات وفلك لايغير الزمان قواعدها ونظرياتها

المضبوطة . ولا يكون اثنان واثنان إلا أربعة سواء في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل . ولا ضير اذن في نشر ما أمكن نشره من مخلفات الاجداد في هذه المواضيع الرياضية ، ولاسيما اذا تمشى ترتيبها وتبويبها مع مقتضيات عصرنا الحاضر .

أما العلوم الزراعية فقد تبدلت عما كانت عليه في القديم تبدلاً كلياً . فمنذ أوائل القرن التاسع عشر كشف العالم السويسري (سوسور) حقائق عظيمة الشأن في الفسيولوجية النباتية من الوجهة الكيمياوية ، ثم وضع ليوبيغ Liebig الالماني وبوسنغلط Boussingault الفرنسي أصول الكيمياء الزراعية وكيفية اغتذاء النبات بالعناصر الغذائية ، ولاسيما بالاملاح المعدنية . ثم كشف بستور Pasteur) عن المكروبات وعلل حصول الاختمار . ثم فحص العلماء تركيب الاسمدة والاتربة والغلات والثمار ، واستنبطوا أصناف الزروع والشجر وسلالات عديدة من الحيوانات الاهلية ، واخترعوا الآلات الزراعية ودرسوا طبائع الحشرات والمكروبات وأمراض النبات الخ الخ . وهكذا أصبحت الزراعة الحديثة قائمة على أدق الاسس العلمية . ولم تبق أية صلة تذكر بين قليل ما كان يعرفه الاقدمون في شؤون الزراعة العملية ، وبين العلوم الزراعية الواسعة في أيامنا هذه . ويتضح من ذلك أنه لافائدة من نشر المخطوطات الزراعية القديمة بل في نشرها ضرر لما حوته من الخرافات والاساطير التي ينبو العقل عنها . ولايخطر في بال أوربي تلاوة كتاب زراعي ألف قبل القرن التاسع عشر لعلمه بان الزراعة قد تطورت تطوراً كبيراً في القرن الماضي وفي القرن الحاضر .

وهكذا الحال في الطب . فلليونان والعرب فضل كبير في هذا الباب . ولكن أين طب الايام السالفة من العلوم الطبية الواسعة في هذه الايام ؟ وأين تشريح الماضي من تشريح اليوم ؟ وأين المداواة بالعقاقير من المداواة بالادوية الحديثة ؟ وأين الجهل بالمكروبات من معرفة حياتها وعملها في جسم الانسان ، وأين وأين ؟ لقد تقدمت العلوم الطبية تقدماً لايجال

معه للبحث عن الطب القديم ولا عن كتبه القديمة . والطبيب الذي يقتصر في المداواة على هذه الكتب يسمى اليوم دجالاً يعاقب بالسجن في شرائعنا وشرائع البلاد الاوربية على السواء .

أما الكيمياء فقد قلبت رأساً على عقب . ويكاد هذا العلم يكون اليوم غير الكيمياء القديمة بتاتاً . فاين تلك الاعمال التي كانوا يأتونها في التفتيش عن الذهب أو بغية طبخ العقاقير النباتية ، من أنواع الكيمياء المعدنية والعضوية والتحليلية في العصر الحاضر ؟ وأين الاجسام القليلة التي عرفوها أو أوجدوها ، من العناصر التي كشف عنها اليوم ، ومن ألوف المركبات الكيماوية التي تستعمل في الطب والزراعة والصناعات المختلفة .

وهكذا أمر النبات . فاليونان ثم العرب قد عرفوا كثيراً من النباتات التي تنبتها الطبيعة ، وحلّوها تحلية حسنة ، أي وصفوا صفاتها الخارجية وصفاً في بعضه كثير من الدقة . ولبعض العشابين من العرب شهرة عالمية كالغافقي وابن الصوري وابن البيطار . وللاطباء والعلماء المشهورين أبحاث جليلة في مفردات الأدوية كالرازي وابن سينا وابن ماسة وعبد اللطيف البغدادي والبيروني والادريسي وغيرهم . وتعد مفردات ابن البيطار من أجل المؤلفات النباتية في تلك الأيام .

ولكن كل ذلك لايعد صالحاً ليوم الناس هذا . فعلماء القرون الوسطى كانوا يجهلون المجهر أي يجهلون الخلية ودقائق أعضاء النبات ونُسُجه . وكانوا يجهلون كيفية تغذي النبات ، والمواد المعدنية التي يتغذى منها ، والاعمال الكيماوية التي تحصل في حياته وفي نموه . ولهذا لم يكن لهم معرفة بالتصنيف الحديث ، ولا بالفسيولوجية ، ولا بالتشريح الداخلي ، ولا بعلم حياة النبات ولا بالأسس العلمية التي يقوم عليها علم اصلاح النسل ، وكل ماعرفوه من هذه العلوم العويصة أمور سطحية كانوا يشاهدونها في شكل النبات الخارجي ، وتجارب بسيطة كانوا يجربونها في حياته وفي خواصه . وكثيراً ما كان يختلط عليهم الصحيح بغير الصحيح .

ولم تكن معرفة القدماء بعلم الحيوان تزيد على معرفتهم بعلم النبات ، إلا فيما له اتصال وثيق بهم ، كالخيل والابل مثلاً ، فان معرفتهم بهما كانت واسعة كمعرفتهم بالنخل من النبات والدليل على ذلك الألفاظ العديدة التي نراها في معاجمنا لتلك المواليد ، مما ليس له مثيل في أي لغة من لغات العالم على ما أعتقد . ولكن هذه المعرفة لا تتعدى الظواهر والمرئيات والملاحظات التي يلاحظها المرء في طويل اتصاله بتلك الحيوانات . أما الاسس العلمية التي يقوم عليها علم الحيوان فقد كانوا يجهلونها جهلهم لامثالها في علم النبات . وهذه الاسس هي وليدة النهضة الاوربية الحديثة ، ولانجـــد منها شيئاً يذكر في كتاب الحيوان للجاحظ ، ولا في حياة الحيوان الدميري .

وعرف الاقدمون شيئاً من أبحاث علم الفيزياء (علم الطبيعة ، علم الطبيعيات) كبعض أبحاث الصوت والضوء . والسائلات . لكنهم جهلوا بعض نظرياتها الاساسية كما جهلوا بحث الكهرباء العظيم برمته . ولم يكن لديهم بعض آلات الضوء الحديثة ، ولا آلات الكهرباء العديدة المعروفة ، ولا آلات الجويات (كموازين الحرارة والجو والمطر وسرعة الرياح) الخ . وفي الحقيقة لقد تقدم علم الفيزياء تقدماً مدهشاً . ولم يبق أي اتصال يذكر بين عهد مبادئه البسيطة في القديم ، وعهد الكهرباء وتحطيم الذرة أي الجوهر الفرد في الحديث .

ويتضح من هذا البحث المجمل أن العلوم المتعلقة بالطب والزراعة والنبات والحيوان والكيمياء والطبيعة قد تقدمت في النهضة الحديثة تقدماً واسعاً جداً ، وان مؤلفات القدماء في هذه العلوم لاتصلح لزماننا هذا ، وان الاكتفاء بها معناه الرجوع الى القرون الوسطى أو الى القرون الاولى ومع هذا لاتخلو هذه الكتب من فوائد ، وأعم فوائدها كونها تهدي المؤلفين الى عدد لايستهان به من الالفاظ والمصطلحات العلمية مما يجب اقتباسه واستعماله في الكتب الجديدة . ومن فوائدها كونها تحبب حلقة من حلقات تاريخ العلوم البشرية . ولهذا قد يستفيد العالم من تلاوتها اذ يقايس بين

محتوياتها ومحتويات الكتب العصرية . ولكن الطلاب والمتأدبين لايجوز أن يضيعوا وقتهم بقراءتها ، فان فائدتهم منها لا تذكر اذا قيست بالفوائد التي يجنونها من تلاوة الكتب الحديثة .

كتب الفلسفة والاجتماع

ضل من ظن أن العقل البشري قد تقدم في أبحاث ماوراء الطبيعة خطوة واحدة منذ أيام أرسطو حتى يومنا هذا . فنحن مازلنا نجهل حقائق هذا الكون العجيب ، ومابرحنا نتخبط في تلمس أسراره وفي استقصاء أحاجيه . ولم تتبدل تلك الاسئلة التي يتساءل الانسان عنها وهي : هل للكون حدود في الفضاء أم لا . وهل له بداية أم هو أزلي . وما هي الطبيعة ، وهل هي تسير بذاتها أم لها علة تديرها . وهذه العلة هل هي مادة أو عقل أو شيء لايمكننا ادراكه . ثم ماهي ماهية الانسان ومن أين أتى والى أين يذهب . وهل العالم مخيَّر أم مسير بجبرية لاتزحزح . وهل أمام العالم رقي أم هو يدور أبدياً على حاله . وما الحركة العامة للكائنات ، وما الحكمة فيها . وهل القواعد الخلقية شريعة بشرية واجتماعية فحسب أم لها أساس في الطبيعة كلها الخ .

هذه أمور مابرح عقل الانسان تائهاً في بيدائها ، وكل فيلسوف في القديم والحديث يبحثها على مايراه . ويقول العلماء بوجوب تركها لانها لايمكن ادراكها ، ولهذا وجب على رأي العلماء الاكتفاء بكلمة لاأدري والكف عن مناقشة مالايمكن بته بالوسائل العلمية . ولكن الحقائق العلمية ليست كل شيء في هذه الحياة . ولابد لدماغ الانسان من أن يتطلع الى معرفة مايهمه من هذا الكون ولاسيما مايتعلق منه بمصيره .

ولا شك أن فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل كما أرتقت العلوم نفسها فصارت تعالج بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة . ولكن في فلسفة اليونان وفلسفة العرب أبحاثاً طلية تصلح لزماننا هذا

صلاحها للزمان الذي ألفت فيه . ولبعض فلاسفة العرب محاكمات عقلية دقيقة تدل على عقول جبارة ، مثال ذلك تلك الادلة الفلسفية المدهشة على وجود الخالق جل وعلا ، التي يراها المطالع في كتاب التهافت للغزالي وكتاب تهافت التهافت لابن رشد ، وقد طبع الكتابان طبعة جميلة في المطبعة اليسوعية ببيروت . ولا ينكر أحد أن في تلاوة كتاب الاخلاق لأرسطو وكتاب جمهورية أفلاطون وكتب عديدة في التوحيد فوائد كثيرة يستفيد منها المتأدبون .

واذا انتقلنا الى كتب التاريخ نجد أن لمؤرخي العرب فضلاً كبيراً في هذا الباب . ومن المعلوم أن التاريخ لايشبه العلوم السائرة . فالحادثة التاريخية لا تتكرر . وقلما ينقلها اثنان على وجه واحد ، لأن أثرها في شخص ما قد يختلف عن أثرها في شخص آخر . وإذا لم يتح لها من يحفظها في صدره أو على القرطاس ضاعت ونسيها الناس . فالعرب كانوا من أحرص الامم على الصدق في رواية الاخبار . وأظن أن العنعنة من خصائصهم وحدهم . وقد نشأ فيهم عدد كبير من المؤرخين الثقاة حفظوا تاريخ أمتنا في كتب نفيسة . ولا خلاف على كون هذه الكتب التي يعرفها كل أديب تحتوي أحياناً على مبالغات أو على خرافات لايسلم العقل بصحتها ولاخلاف أيضاً على كون التاريخ أصبح له اليوم مآخذ وقواعد علمية راسخة كمعرفة اللغات القديمة وقراءة الآثار ومقايسة المستندات المختلفة وتمحيص محتوياتها ، ولكن كل ذلك لايقدح في صحة زبدة الاخبار التي اشتملت عليها كتب التاريخ والتراجم العربية في العصور المختلفة .

وتمكن العرب في الجغرافيا من صنع خرائط جغرافية تكاد تكون مجملاً لصور البلاد التي عرفوها . وقد اشتهر منها كرة الادريسي . ومن بدائه الامور أن آلات المسح الحديثة لم تكن معروفة في تلك الايام ، وانه لايجوز اليوم أن نكتفي بالخرائط القديمة لما فيها من النواقص والاغلاط ولكن من ذا الذي ينكر أن بعض الكتب الجغرافية القديمة كمعجم

البلدان لياقوت الحموي مثلاً تعد خزانة ثمينة في الجغرافية والادب جميعاً . ومن ذا الذي ينكر أن هذا السفر النفيس يقرؤه العربي بلذة في كل زمان وفي كل مكان . ومن الكتب الفذة مالا تبلى جدته على كر الأيام كمقدمة ابن خلدون وكتاب أخلاق الملوك للجاحظ وأمثالها . ويستنتج مما ذكر أن بعض آثار السلف في الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والاخلاق تصلح للنشر ، وان الزمان لايقلل قيمتها ، وان في تلاوتها فائدة ولذة للعالم والمتعلم على السواء .

اتساع العلوم :

كان القدماء لايعدون المرء عالماً إلا اذا تناول بالبحث جميع العلوم البشرية . ولهذا كان العلماء حريصين على التأليف بعلوم مختلفة لاصلة لبعضها ببعض البتة . فالجاحظ مثلاً صنف في الحيوان ، وابن سينا في الفقة والتوحيد ، والكندي في الموسيقى ، والشيخ عبد الغني النابلسي في الزراعة الخ . أما اليوم فالذي يدعي معرفة العلوم كلها يعد جاهلاً أو مجنوناً . والذي يؤلف في علوم مختلفة يخلط وتزل قدمه فلا تروج مؤلفاته ولا يكتب لها البقاء . والعالم في هذا الزمن هو الذي يلم إلماماً بأسس العلوم المهمة ، ثم يختص بعلم واحد ، أو بفرع علم واحد ، فينكب عليه سنين طولاً ، ويقتله درساً ، ويكون له فيه بحوث خاصة أو نظريات أو مكشوفات أو اختراعات .

ولقد اتسعت العلوم اليوم اتساعاً يحير العقول . وها كم مثالاً واحداً على ذلك وهو علم الحشرات . فالحشرات في كتب الحيوان القديمة لايتجاوز بحثها كلها عشرين أو ثلاثين صفحة نصفها أدب ونكات وخرافة ولغة . أما اليوم ففي خزانة كتبي سفر افرنسي في علم الحشرات ألفه أحد أساتذتي يشتمل على ثلاثة مجلدات ، في كل منها مالا يقل عن ٨٠٠ صفحة ، يضاف اليها سفر رابع في الصور والاشكال . ومع هذا يعد هذا الكتاب موجزاً

في العلم المذكور لامطولا . وأعرف عالماً قضى عشرين سنة من عمره وهو يدرس رتبة واحدة من رتب الحشرات وهي مغمدات الاجنحة . وهكذا الحال في العلوم السائرة وفروعها . فعصرنا اذن هو عصر الاختصاص .

ولم يقتصر القدماء ، في بحثهم للعلوم ، على اتباع الطرائق العلمية المعروفة في أيامنا هذه . بل كانت بحوثهم تارة يقينية قائمة على الحس والتجارب والاستدلالات العقلية ، وطوراً غيبية تقوم على التخيلات وعلى عمل القوى المجهولة . وكان الاسلوب الغيبي سائداً عند العرب وغير العرب . ومن المعلوم أن العلوم لم تتقدم الا حديثاً أي بعد أن ساد الاسلوب العلمي في البحث والتفكير .

الخلاصة :

لقد كان أجدادنا العرب سدنة علوم الاقدمين وواسطة نقلها الى الاوربيين . ولم يكتفوا بمدارسة تلك العلوم والاحتفاظ بها طيلة القرون التي لبثت فيها أوربة سادرة في خضم من الجهل المطبق ، بل وسعوها وأضافوا اليها إضافات مهمة تدل على ماظهر فيهم من عقول جبارة تناولت بعض العلوم بأساليب ووسائل علمية لا غبار عليها . ولا ينكر المنصفون من علماء الغرب فضل العرب على الحضارة فيما أضافوه الى الطب والنبات والطبيعة والحساب والجبر والمثلثات والفلك وغيرها من العلوم . ولولا العرب لضاعت العلوم القديمة بجملتها ، ولتأخرت النهضة الحديثة سنين طولاً لايعلم الا الله مقدارها .

ولست أبتغي بهذه العجالة تعداد مآثر علماء العرب وبيان أبحاثهم الفذة التي سبقوا غيرهم اليها في مختلف المعارف البشرية ، فان ذلك يستغرق بضع محاضرات . ولكني أرى ضرورة التنبيه الى أن آثار الاجداد العقلية بعضها يصلح لكل زمان كالامهات من كتب الادب والفلسفة والدين والرياضيات والتاريخ والجغرافيا . وبعضها لابد من الرجوع اليه ريثما نضع ماهو أصلح منه ككتب اللغة أي المعاجم . وبعضها لم يبق صالحاً أو كافياً

لأيامنا هذه ككتب الطب والكيمياء والطبيعة والزراعة والنبات والحيوان وغيرها .

ونحن والاوربيون سواسية في هذا الموضوع . فالانكليز مثلاً مابرحوا يطبعون كتب شكسبير الادبية . ومابرح الفرنسيون يقبلون على مدارسة روايات راسين وموليير . ولكنه لايجول في خلد أحد من الطابعين في انكلترة أو في فرنسة أن ينشر كتباً ألفت في عهد هؤلاء الادباء في الطب أو الزراعة أو الطبيعة أو الكيمياء أو المواليد . واذا نشروا كتباً كهذه فانما يفعلون ذلك بنية اطلاع العلماء على حلقة من حلقات تقدم العلوم المذكورة ، لابنية جعل الجمهور يستفيد من موضوعاتها العلمية ، لان هذه الموضوعات قد تبدلت تبدلاً كلياً بدءاً من أوائل القرن الماضي على الاخص .